

نظرية الفونيم

هناك مصطلحات يجب فهمها قبل معالجة الأفكار الأساسية في هذا الموضوع، وأول المصطلحات كلمة (Phone) وتعني حين تستخدم في علم اللغة (الصوت المفرد) ، أى: الصوت اللغوي البسيط الذى يمكن تسجيله بالآلات الحساسة فى العمل^(١)، وقد يستخدم فى نفس المعنى كلمة (Son) ، ولكن الأولى هى المشهورة: ثم يتولد عن هذا المصطلح مصطلح آخر هو (Phonème) ، ويقصد به (الوحدة الصوتية) على مستوى التشكيل أو التنظيم الأدائى ، ولقد تقوم هذه الوحدة على صوت واحد (Phone) ، وقد يدخل تحتها مجموعة من الأصوات أو الأعضاء ، التى يطلق عليها أيضا : (Allophone) . ومعناه: صوت آخر ، إشارة إلى وجود هذا الصوت الآخر إلى جانب غيره داخل الفونيم .

فالفونيم إذن مصطلح فونولوجى ، تدور حوله بحوث كثيرة ، وربما كان من أعقد ما واجه العلماء من مصطلحات ، عندما أرادوا تحديد مفهومه ، على الرغم من أن ترجمته إلى العربية واضحة ، وتأتى الصعوبة عندما يراد تفسير الأساس الذى تقوم عليه هذه الوحدة الصوتية : أهو أساس عضوى؟ أم نطقى؟ .. أم سمعى؟ .. أم وظيفى؟ .. أم نفسى؟ .. أم أنه خليط من بعض تلك؟ أو منها جميعا؟ ..

كل ذلك قال به العلماء حين اختلفوا فيما بينهم ، ودفع اختلافهم علماء آخرين إلى إنكار فكرة الفونيم ، بل وإنكار أن يكون صحيحا القول

بوجود مستوى للدراسة الفونولوجية إلى جانب المستوى الفوناتيكي ، وقد نشير إلى هؤلاء الرافضين فيما بعد .

ولقد يكون من الصواب أن نتمسك بانخبط من أوله حين نراجع معنى هذا المصطلح (Phonème) في معجم اللغة الفرنسية ، لنجده مستخدماً في علم الأصوات التليدي بمعنى : « عنصر صوتي في اللغة المنطوقة ، يقوم على أساس عضوي [هو تكوينه بواسطة أعضاء النطق] ، وعلى أساس سمعي [وهو الصفة الموضوعية أو الشخصيه للسمع] . » ، ويصنف علم الأصوات الفونيات إلى حركات وصوامت ، وأنصاف حركات [أو أنصاف صوامت] ، أما في علم الأصوات التشكيلي (الفونولوجيا) ، فإن هذا العنصر نفسه معتبر وحدة متميزة للتعبير الصوتي «^(١) .

وتدل إشارة المعجم على أن هذا المصطلح قد بدأ يتداول في النحو الفرنسي منذ عام ١٨٧٣ م ، وهذه هي نفس المرحلة التي ظهر فيها اللغوي السويسري فريدناند دوسوسور ، فلا يبعد أن يكون هذا المصطلح من استخدام هذا العالم الجليل ، والذي يعتبر حديثه عن (الفونيم) من أقدم ما بين أيدينا من بحوث علم اللغة العام .

تحديد دوسوسور للفونيم

يبدأ دوسوسور^(٢) معالجة مشكلة (افونيم) بالفرقة بين جانبين من جوانب النشاط ، يبدوان أثناء الكلام ، هما :

(1) Dictionnaire de la Langue Française , par p. Robert par.

(2) Cours de Ling. générale, p. 36-66.

أولاً : الجانب العضوى .

ثانياً : الجانب السمعى (الاكوستيكي) .

ويقول : « إن كثيراً من علماء الأصوات يعكفون على دراسة حدث التصويت ، أعنى إنتاج الأصوات بواسطة الأعضاء (الحلق والقم .. إلخ) ، ويفلون عن الجانب السمعى ، وهذا المنهج غير صحيح ... لأن التأثير الواقع على الأذن هو الأساس الطبيعى لكل نظرية ... هذا العنصر السمعى يوجد بصورة لاشعورية عندما نبدأ فى النظر إلى الوحدات الفونولوجية ، ذلك أننا بواسطة الأذن نعرف ماذا يكون صوت (b) أو (t) ، مثلاً . ولو أننا استطعنا أن نسجل فيلما سينمائياً لجميع حركات القم والحلق ، فى أثناء نطق سلسلة من الأصوات فربما كان من المستحيل أن نكشف عن الانقسامات فى هذا التتابع من الحركات المنطوقة ، فلا نعرف متى يبدأ صوت معين ، ولا أين ينتهى الآخر ؟ »

ومعنى ذلك أن الصوت فى دراسة دوسوسور لا يتحدد بالوصف العضوى فقط ، لأنه — كما لاحظ — لا يمكن إدراك البداية العضوية للصوت ، أو نهايتها ، من حيث كانت الحركات العضوية أثناء النطق متراسلة ، متواصلة ، يؤدي بعضها إلى بعض دون توقف ، إلا فى نهاية الكلام ، وتزداد هذه الحالة غموضاً بالنسبة إلى الأجنبي عن اللغة .

أما الاعتماد على التأثير السمعى فهو الذى يمكننا من معرفة الوحدات الصوتية ، والتمييز بين بعضها وبعض ، « ذلك أننا فى سلسلة الكلام المسموع يمكننا أن ندرك مباشرة : إن كان صوت معين مازال ممثلاً لصفاته أم لا ، فإدام لدينا إحساس ببعض التوافق ، فإن هذا الصوت واحد » .

ولكى نفهم كلام دوسوسور ، نأخذ مثالا من العربية يوضحه ، فالكامة (شَعْرَ) مكونة من حيث الكتابة من ثلاثة رموز ، ولكنها من حيث النطق ستة أصوات ، أولها هو صوت (الشين) ، وهو يتميز باحتكاك في المنطقة الأمامية من الفم ، فإدام هذا الاحتكاك مستمرا فإن صوت الشين يظل في حالة تولد مسمى ، حتى إذا انتهى الاحتكاك فإننا نحكم بأن الشين قد انتهت ، ليمبدأ من بعدها إصدار صوت الفتحة ، وهكذا في الصوت الثالث (العين) ، وهو عبارة عن احتكاك في منطقة الحلق مع تذبذب في الأوتار الصوتية ، يليه صوت الفتحة ، ثم الصوت الخامس (الراء) ثم الفتحة .

فإذا غمض عاينا إدراك الحدود العضوية للصوت ، فإن الحدود السمعية يسهل التعرف عليها ، حتى مع عدم معرفتنا للغة التي نسمعها .

ويمضى دوسوسور في وصفه التحليلي لفكرة الصوت ، وكيفية التعرف على حدوده ، فيذكر لنا أن الأصوات المتتابة مقيسة بالزمن ، ولكنه ليس زمنا موسيقيا محدد الكمية ، متساوي الوحدات ، بل هو زمن توافقي متميز بوحدة التأثير ، وهنا نقطة البداية الطبيعية لدراسة علم الفونولوجيا .

وهو يسجل أن نظم الكتابة التي عرفتها الإنسانية تختلف في تسجيل هذه الأزمان التوافقية ، فالأبجدية الإغريقية تخص كل صوت برمز مستقل ، وقد ورث ذلك عنهم اللاتينيون ، ولكن هذا الأساس قد اضطرب في الكتابات الأوربية الحديثة ، حيث يستخدم رمزان كتبايان ، مثل (Ch) للتعبير عن صوت واحد هو (ʃ) أو الشين ، كما يعبر كل من الرمز (S و C) عن صوت السين ، وكما يعبر رمز واحد (X) عن صوت مزدوج هو (KS) .

أما الأبجدية السامية فهي تسجل الصوامت وحدها ، دون الحركات^(١) ،
وأما القبارصة فقد انتهوا إلى استخدام رموز ذات دلالة مركبة مثل :
Pa, ti, Ko وهم يصفون هذه التكوينات بأنها مقطعية ، وهو وصف غير
دقيق ، لأن المقطع يتشكل بصور أخرى مثل : tro, Pak ... إلخ .

ثم ينتهي دوسوسور إلى القول بأن تحديد الأصوات لا بد أن يعتمد
على الأساسين : العضوى والسمعى : « فتحديد الأصوت فى السلسلة المنطوقة
لا بد إذن أن يعتمد على التأثير السمعى ، ولكن وصفها لا بد أن يعتمد على
الحدث النطقى ، لأن الوحدات السمعية فى سلسلتها الخاصة غير قابلة للتحليل ،
فيجب أن نلجأ إلى سلسلة حركات التصويت ، وسنلاحظ حينئذ أن الصوت
الواحد يقابله حدث واحد خاص به :

فصوت b (زمن سمعى) = صوت b' (زمن نطقى) .

والوحدات الأولى التى نحصل عليها عند تقسيم السلسلة المنطوقة سوف
تكون مركبة من [b' , b] ، وهى التى نطلق عليها : فونيم Phonème .
وبذلك يصل إلى تعريف الفونيم على أنه : « مجموع التأثيرات السمعية ،
والحركات النطقية للوحدات المسموعة ، والوحدات المنطوقة ، كل منهما
يشترط الآخر » .

ومن الواضح أن تعريف الفونيم على هذا النحو — هو تقريبا — نفس
التعريف الذى أخذ به معجم روبرت Robert - الذى أسلفناه فى مقدمة البحث ،
عما يؤكد احتمال أن دوسوسور هو صاحب هذا المصطلح أساسا ، حين
استخدمه فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر للدلالة على هذا المفهوم .

ودوسوسور يعنى بتعريفه للفونيم أنه مفهوم مركب ، لا بد فى تصور

(١) سبقت دراسة هذه الخاصة فى (مكان الكتابة فى أحداث اللغة) ص ٥٢ .

من اعتبار الجانب السمعى والجانب العضوى ، فكل منهما شرط فى حدوث الآخر ، ولكل وحدة صوتية ، (فونيم) زمن تستغرقه ، لا يمكن تصورهما بدونها ، فإذا نطقنا مثلا مقطعا فى صورة (fa) فهو مجموع من زمنين متواليين أو هو :

امتداد زمنى معين (t) + امتداد آخر هو (a) .

فإذا أردنا فصل هذه الوحدة الصوتية عن الزمن ، فإننا نضعها فى حالة تجريد ، فنحدث مثلا عن الصوت (t) أو عن النوع (T) مجردا-in abstracto . ولكى نصل إلى حصر الوحدات الصوتية التى تقوم عليها لغة معينة يجب أن نحلل عدداً كافياً من السلاسل المنطوقة فيها ، ليمكن تصنيفها ، ومن أجل هذا ينبغى أن نتجاهل بمض الفروق التى لاتهم من الناحية السمعية ، لنصل فى النهاية إلى قائمة الأنواع ، أو الوحدات الصوتية ، أو الفونيمات .

تحديد تروبتسكوى^(١) للفونيم

وقد استطاع هذا الفونيم أن يقدم بعد دوسوسور دراسة مستفيضة لمشكلة تحديد الفونيم ، سواء من وجهة نظره ، أم من وجهة نظر كل المدارس التي عرض آراءها ، شارحاً ، وناقداً ، بحيث أغفانا عن الرجوع إلى كثير من المراجع باللغات المختلفة .

وقد وضع تروبتسكوى للفونيم تعريفاً مختصراً ، يعتبر تلخيصاً لعملية تحليلية قدمها بين يدي التعريف ، قال : « الفونيم هو أصغر وحدة فونولوجية في اللسان المدروس » .

وليس من الممكن فهم هذا التعريف إلا بعرض لمحة عن التحليل الذي قدم له ، ذلك أن تروبتسكوى يرى أن كل صوت مكون من مجموعة من العناصر ، هي مجموعها غير قابلة للتجزئة أو التحليل ، قال : « من الناحية الصوتية كل (باء) تتمثل في سلسلة من الحركات النطقية : أولاً : تقرب الشفتان ، لإحداها من الأخرى ، بحيث تملقان إغلاقاً تاماً المجال الفونومي

(١) نيقولاس سيرجيفيتش تروبتسكوى N. S. Troubetzkoy - لغوي مشهور ، من أصل روسي ، ولد في موسكو في ٦ أبريل ١٨٩٠ ، وكان أبوه أميراً ، وأستاذاً للفلسفة بجامعة موسكو ، وتولى منصب مدير بلجامعتها ، وقد حصل نيقولاس على درجة الدكتوراه عام ١٩١٦ . وعمل في نفس الجامعة . ثم تنقل بعد ذلك في عدة جامعات داخل الاتحاد السوفيتي وخارجه . حتى استقر به المقام عام ١٩٢٢ في فيينا أستاذاً لكرسي اللغات السلافية . وقد كتب مجوئنا كثيرة عن اللغات المختلفة ونظمها الصوتية والفونولوجية . حتى إن الحلقة اللغوية في براج (عام ١٩٣٨) ذكرت أنه درس حوالي مائتي نظام فونولوجي . وكانت الثمرة الناضجة التي خلفها هي كتابه (مبادئ الفونولوجيا Principes-dePhnologie - الذي توفي قبل أن يكمله في ٢٥ يونيو ١٨٣٨ . أنظر مقدمة الكتاب وقد ترجمه من الألمانية إلى الفرنسية جاك كاننينو طبعة ١٩٤٩ .

الأماعى . وفي نفس الوقت : يبدأ الوتران الصوتيان في التذبذب ، في حين يخترق الهواء الصاعد من الرئتين الفراغ القموى ، ويتجمع خلف عقبة الشفتين . وأخيرا . تزول هذه العقبة تحت ضغط الهواء المندفع .

وكل من هذه الحركات مرتبط بأثرسمى محدد ، بحيث إن أية جزئية من هذه الجزئيات السمعية (Atomes accoustiques) — لا يمكن اعتبارها وحدة فونولوجية ، لأنها تبدو دائما كلاً ، لا يمكن افتراقها فيما بينها مطلقاً ؛ فالاحتباس الشفوى ، يليه دائماً الانفجار ، الذى يولده دائماً الاحتباس ، والجهر ذو الطابع الشفوى الذى يرن بين الاحتباس والانفجار ، لا يمكن أن يظهر دون الاحتباس الشفوى والانفجار .

فالباء كلها إذن — تعتبر وحدة فونولوجية ، غير قابلة للتحليل من حيث الزمن ، ومن الممكن أن نقول نفس الشيء عن الوحدات الفونولوجية الأخرى .

هذه الوحدات الفونولوجية التى لا يمكن تحليلها من وجهة نظر اللغة المدروسة إلى وحدات فونولوجية متوالية أصغر — هى التى نطلق عليها (فونيمات)^(١) .

وبذلك يمكن فهم التعريف المتقدم القائل بأن الفونيم هو « أصغر وحدة فونولوجية فى اللسان المدروس » .

وقد استطرده تروبتسكوى فى تفسير وجهة نظره هذه — بأن من الواجب ألا نبسط الأشياء ، فنصور لأنفسنا الفونيمات وكأنها قطع من الأحجار ، تتكون منها الكلمات المختلفة ، لأنه يرى أن كل كلمة تعتبر كلا صوتياً ، بمثابة شبح Silhouette ، والسامعون يتعرفون عليها كما يتعرفون على الشبح ،

(1) Principes de phonologie, p. 37 et sq.

أشبه شيء بتعرف الإنسان على رجل يسير في الطريق سبق أن رآه ، فهو يتذكر مجموع شبحه ، ولكن التعرف على الشبح يفترض أنه يتميز عن الأشباح الأخرى ، وليس ذلك ممكناً إلا بأن تتميز هذه الأخرى فيما بينها ببعض العلامات . والفونيات هي إذن العلامات المميزة لأشباح الكلمات ، فينبغي أن يكون في كل كلمة من الفونيات بقدر ما يلزم لتمييزها عن جميع الكلمات الأخرى ، وهذه الفونيات المتتابة خاصة بهذه الكلمة وحدها ، وإن كان كل حرف بمفرده في هذا التتابع يبدو أيضاً علامة مميزة في كلمات أخرى .

والفرق بين وجود (الكلمة) عند تروبسكوى ، وبين وجود (الفونيم) هو أن كل كلمة من حيث هي (شبح) تحتوى دائماً شيئاً أكبر من مجموع حروفها أو فونياتها ، هذا الشيء هو (الوحدة) التي تضم هذا التتابع من الفونيات ، وتمنح الكلمة فرديتها ، بيد أن هذه الوحدة ليست مستقرة في جسد الكلمة ، ولذلك يمكن تحايل جسد الكلمة إلى فونيات ، كما يمكن تحليل أى لحن مكون من مجموعة نغمات السلم الموسيقي إلى (النوت) التي يتألف منها السلم ، مع أن اللحن يحتوى زيادة على النوت - شيئاً يمنحه شبحه الموسيقي الخاص .

وعلى الرغم من أن تروبسكوى قد أفاض في تحليل فكرته عن الفونيم ، فقد انتهى في خاتمة حديثه إلى أن الأساس الذي يقوم عليه تعريف الفونيم ينبغي أن يكون (وظيفته) في تمييز كلمة عن أخرى ، وقد وضع لهذا التمييز قواعد يمكن تطبيق بعضها على اللغة العربية :

القاعدة الأولى :

إذا كان الصوتان من نفس اللغة ، ويظهران في نفس الإطار الصوتي ، وإذا كان من الممكن أن يحمل أحدهما محل الآخر ، دون أن ينتج عن هذا

التبادل اختلافاً في المعنى العقلي للكلمة - حينئذ يكون هذان الصوتان صورتين اختياريتين لفونيم واحد .

ومن تطبيق هذه القاعدة على العربية أن نجد لفونيم (الجيم) صوراً نطقية يمكن أن يحل أحدها محل الآخر دون أى تغيير في المعنى ، ومعنى ذلك أن هذه الصور الصوتية تنتمي لفونيم واحد هو فونيم (الجيم) .

ولو أننا نظرنا إلى النطق القرآني للسين في كلمة (مسيطر) ، لوجدناه أحياناً يأتى بالسين مرقمة على وجهها ، ويأتى بها أحياناً مفضمة ، في شكل الصاد ، وهى أصلاً سين ، فالصوتان إذن هما صورتان لفونيم واحد ، ما دام التغيير لم يترتب عليه اختلاف في المعنى العقلي للكلمة .

القاعدة الثانية :

إذا كان الصوتان يظهران تماماً في نفس الموقع الصوتي ، ولا يمكن أن يحل أحدهما محل الآخر دون تعديل معنى الكلمة ، أو دون أن تصير الكلمة إلى الغموض - حينئذ يكون هذان الصوتان صورتين واقعتين لفونيمين مختلفين .

ولو أننا طبقنا هذه القاعدة على العربية ، فسنجد أن ارتباط تغير المعنى بتغيير الفونيم هو الفيصل في تحديد أشباح الكلمات ، فالكلمتان سار وصار - لكل منهما معنى معين ، يختلف عن الأخرى ، لأن كلا منهما تميز بفونيم خاص هو علامتها ، فالسين والصاد هنا فونيمان ، وكذلك الحال في الأصوات الأولى من الكلمات :

(باب - تاب - ثاب - جاب - خاب - ذاب - راب - ساب - شاب - صاب - طاب - عاب - غاب) ، فإن هذه الأصوات تعتبر فونيمات مستقلة لأن مجرد اختلافها مع الاتفاق في بقية أحرف الكلمة - يعنى اختلاف المعنى .

القاعدة الثالثة :

إذا كان الصوتان من نفس اللغة ، متقاربين فيما بينهما من الناحية السمعية ، أو النطقية ، ولا يبرزان مطلقاً في نفس الإطار الصوتي - فإنهما يعتبران صورتين تركيبيتين لنفس الفونيم^(١).

وقد أطلق الدكتور تمام حسان على هذه الفكرة مصطلح التخارج بين أعضاء الفونيم ، فالنونات المختلفة متخارجة من حيث الموقع ، لأن الفونيم النون صوراً كثيرة تظهر كل منها في موقع معين ، فالنون الساكنة قبل صوت أسناني (كالثاء) تنطق أسنانية ، والنون الساكنة قبل صوت لهوي (كالقاف) - تنطق لهوية ، وهكذا تتعدد صور الفونيم باختلاف الأصوات التالية لها ، وبمحيط لا يمكن في بيئة معينة أن تحمل صورة أسنانية محل صورة لهوية ، وينقل الدكتور تمام عن دانييل جونز قوله : « إن الفونيم في لغة ما عائلة من الأصوات متقاربة في خصائصها ، تستعمل بطريقة لا تسمح بأن يستعمل أحدها في نفس البيئة الصوتية ، التي يستعمل فيها الآخر أبداً »^(٢).

ولكن من الواضح أن ترويتسكوي ، رغم إصراره على تعريف الفونيم تبعاً لوظيفته - قد اعتمد على تحديد الجانب العضوي والسمعي في وصفه ، وكأنه بذلك يسجل اعترافاً بما ذهب إليه قبله اللغوي الرائد فرديناند دوسوسور .

(١) السابق ص ٤٧ وما بعدها .

(٢) مناهج البحث في اللغة - ص ١٢٦ .

ولسوف نرى أن هذا الاتجاه قد ساد مدارس علم اللغة التي قدر لآرائها أن تنتشر وتفتح أجيال الباحثين في هذا الموضوع .

على أنه قد اتضح من تطبيق القواعد السابقة أن (الفونيم) يتميز بخصائص متوافقة تجعل منه وحدة فونولوجية مغايرة لما عداها من الفونيمات، وبذلك يمكن القول بأن الفونيم « هو مجموع الخصائص الفونولوجية المتوافقة ، التي تحتويها صورة صوتية » (١) .

وهذه هي النتيجة التي انتهى إليها تروبتسكوى ، وهي توشك أن تجمل من الفونيم وحدة تجريدية ، تتحقق ببعض خصائصها في الصورة الصوتية المختلفة ، وهو فعلا ما عبر عنه حين قال : « إن الأصوات المحسوسة التي تبرز في اللغة ليست سوى رموز مادية للفونيمات ... وليست هذه الأصوات هي الفونيمات في ذاتها » (٢) .

وليس بوسعنا أن نشير الآن مشكلة إطلاق مصطلح (فونيم) على الوحدة الصوتية متعددة الصور ، دون الوحدة الصوتية ذات الصورة الواحدة ، أو إطلاقه على كلتا الوجدتين ، فذلك موضوع سوف نعالجه من خلال مناقشتنا التالية لآراء دانييل جونز .

غير أن من الضروري أن نشير إلى أن تروبتسكوى قد ارتضى تعريف بلومفيلد للفونيم ، وهو القائل بأنه : « أصغر وحدة متميزة » ، وارتضى

أيضاً تعريف بهار للفونيم بأنه : « علامة صوتية في جسد الكلمة » ، ورأى في هذين التعريفين رجوعاً إلى نفس المنطلق الذى حدد على أساسه تعريفه للفونيم ، وهو أن كل لغة تفترض وجود متغيرات فونولوجية متميزة ، والفونيم مصطلح يطلق على هذه المتغيرات التى لا تقبل الانقسام إلى وحدات فونولوجية متميزة ، أكثر صفراً (١) .

(١) السابق .

التحديد النفسى للفونيم

أدركنا من المناقشة السابقة كيف تقوم فكرة (الفونيم) على أساس عضوى ، أو سمعى ، أو وظيفى ، وهذه كلها أسس موضوعية يمكن لحها فى السلسلة الكلامية المنطوقة .

ويجب أن نقرر هنا أن (الفونيم) فكرة تتصل باللغة المنطوقة ، أى : بالكلام ، الذى يقدم دائماً صوراً مختلفة الأداء للفونيم الواحد ، على حين أن الكتابة فى أى لغة لا تستعمل سوى رمز واحد لمجموعة صور الفونيم ، رمز يلخص كل الصور المنطوقة .

وقد ظهر من اللغويين من اعتبر الفونيم فكرة تقوم فى الذهن ، فهى أساساً ذات طابع عقلى تجرىدى ، ودور المتكلم فى تحقيقها هو أنه يقوم باستحضارها فى عقله ، ويحاول أن ينطقها فى الكلام^(١) بقدر ما تدرّب على النطق فى بيئته ، أى : على أساس السليقة ، التى تفترض عدم شعور المتكلم بخصائص لغته عند ممارستها .

وقد وضع ج . بودوان G. Bondouin — تعريفاً للفونيم بمصطلحات علم النفس ، لصوغ الفكرة السابقة . فقال : « إنه المعادل النفسى للصوت اللغوى » :

« L'équivalent Psychique du son du Langage » (2)

(١) مناهج البحث فى اللغة / ١٢٨ .

(٢) ترويتسكوى السابق .

وتروبتسكوى في هذا النقد يحاول إثبات أمرين :
أولهما : أن الصوت اللغوى لا يعامل كوحدة مستقلة ، وإنما هو عنصر
في بناء كلى هو حدث الكلام المستمر المسموع ، وذلك انطلاقاً من فكرته
القائلة بأن الفونيم يتحدد بوظيفته في التركيب الصوتى المنطوق ، لا بذاته .

وثانيهما : أن العلاقة بين الصوت والفونيم ذات صبغة لغوية ، لا يتدخل
فيها أى عامل آخر نفسى ، كما يرى أتباع المدرسة النفسية ، وأنا نستدل على
خصائص الصوت الوظيفية بخصائص الفونيم ، لا العكس .

ويمضى المؤلف فى تتبع الأسس النفسية لتفسير الفونيم فينتهضها فكرة
فكرة ، يقول : « إن من الواجب أن نتجنب اللجوء إلى علم النفس لتعريف
الفونيم ، لأنه فى الواقع فكرة لغوية ، وليس فكرة نفسية ، وكل لجوء إلى
(الوعى اللغوى) يجب تنجيثه عند تعريف الفونيم ، إذ أن (الوعى اللغوى)
إما أن يكون استعمالاً مجازياً للغة معينة ، وإما أن يكون فكرة غامضة تماماً
تحتاج إلى أن تعرف بدورها ، وربما استحالة تعريفها » .

ولهذا السبب أيضاً رفض تعريف فان ويك Van Wijk - الذى نشره
عام ١٩٣٦ ، والقائل بأن « فونيمات لغة ما تشكل طائفة من العناصر اللغوية
التي توجد فى ذهن جميع أعضاء الجماعة اللغوية » ، وهو القائل أيضاً : « إن
الفونيمات هى أصغر الوحدات التي يشعر الوعى اللغوى بأنها غير قابلة للانقسام » -
فربط مفهوم (الفونيم) بأفكار غامضة مثل (الذهن) ، و (الوعى اللغوى)
و (الشعور) - لا يمكن أن يفيد فى شرحه ، لأن من المستحيل أن نتعمق
فى مفهوم عبارة (ذهن جميع أعضاء الجماعة اللغوية) ولا سيما إذا كان الأمر
متعلقاً بلغة مميّنة ، كما أن الكشف عما (يشعر به الوعى اللغوى) مشروع
شائك وصعب للغاية .

ويخلص تروبتسكوى إلى قوله : « إن الفونيم قبل كل شئ مفهوم وظيفي ويجب أن يعرف بالنسبة إلى وظيفته ، وتمريته لا يمكن أن يتحقق بواسطة المفاهيم النفسية »^(١) .

ولقد يوضع في إطار هذا النقد رأى إدوارد ساير الذى يستعمل في مقاله المعنون : (أنماط الأصوات في اللغة) - الاصطلاح : « أصوات مثالية » ليقتصد الفونيمات من وجهة النظر العقلية ، وهو يقول بأن « هذه الأصوات المثالية التي يكونها إحساس المرء بالعلاقات المقصودة بين الأصوات الموضوعية أكثر تحققتا في نظر المتكلم الفطرى من الأصوات الموضوعية نفسها » ، ويقول في نفس المقالة : « إن السيكلوجية المركبة للعلاقة والنمط واضحة في نطق أبسط صامت وحركة »^(٢) ، فكل ذلك ينبغي رفضه طبقا للمنهج اللغوى .

وبرغم هذا النقد المرير الذى وجهه تروبتسكوى إلى تفسير الفونيم على أساس نفسى ، فقد وجدنا ماريو باى يتبنى هذا الأساس ، وهو يقول عن موضوع (علم الفونيمات) : إنه « الأصوات ، أو المجموعات الصوتية المتقاربة ، التي يدرك علاقتها شعور الجماعة التي تتكلم لغة معينة ، والاختبار الموضوعى للفونيمات هو (المغايرة) أو الاختلاف في المعنى ، الذى يظهر أو لا يظهر عندما يحل صوت محل آخر ، مع بقاء سائر حروف الكلمة كما هي »^(٣) . وهو بهذا يجمع بين معطيات التفسير النفسى ، ومعطيات القواعد التي حددها تروبتسكوى لتحديد الفونيم .

ويقول : « إن وظيفة هذا العلم وصف أصوات لغة معينة وتصنيفها على أساس من إحساس المتكلمين باللغة »^(٤) .

(٢) مناهج البحث في اللغة / ١٢٩

(٤) السابق / ٤٨

(١) السابق / ٤٣

(٣) أسس علم اللغة / ٥٠

ويعرف الفونيم بقوله : « إنه مجموعة ، أو تنوع ، أو ضرب يضم أصواتا
وثيقة الصلة (فونات) ، ينظر إليها المتكلمون على أنها تمثل وحدة واحدة ،
بغض النظر عن تنوعاتها الموضعية » (١) .

فالفصيل في تمييز الفونيم تبعاً لهذه التحديدات ، ليس هو الأساس
العضوي ، أو الوظيفي ، أو النطقي ، ولكنه (شعور الجماعة) و (إحساس
المتكلمين) . وهو ما سبق أن انتقده تروبتسكوي في آراء بودوان وغيره .

(١) السابق / ٤٩ .

تحديد دانييل جونز للفونيم

وتعريف دانييل جونز للفونيم على أنه : « عائلة أو مجموعة من أصوات اللغة المتقاربة سماعا ونطقا ، والتي لا تظهر مطلقا في نفس الإطار الصوتي » - يحمل ابتداء نقطة ضعف واضحة ، لأنه يقصر (الفونيم) على مجموعة الأصوات المتقاربة ، المحكومة بالسياق الصوتي ، وذلك كفونيم (ɣ) مثلا ، فهو في الفرنسية ينطق بصورتين تبعا للحركة التالية له ، فإذا جاءت بعده الرموز (a, o, u) فهو كالجيم القاهرية ، وإذا جاءت بعده الرموز : (e, i, y) نطق معطشا ، كالجيم الشامية .

وبذلك نفهم من تعريف دانييل جونز :

أولا : أن الفونيم لا بد أن يكون عنوانا على مجموعة أصوات محكومة بالسياق .

ثانياً : أن هذا السياق كتابي أكثر منه نطقي ، أو كما يقول تروبتسكوي : « إن فكرة الفونيم لدى دانييل جونز ذات علاقة وثيقة بمشكلة الكتابة الصوتية » .

ثالثاً : أن الأصوات المفردة ليست فونيمات ، مادامت تنطق بصورة واحدة دائماً .

ولقد اصطدم هذا التصور لديه بحقيقة أخرى هي أن الصوت قد يكون ذا صورة واحدة في إدراك الأذن المجردة له ، ولكنه في الواقع ، وكما برهن

على ذلك علم الأصوات التجريبي ، مجموعة أصوات ، إذ أن من المستحيل أن ننطق صوتاً معيناً بنفس الطريقة ، وفي إطار صوتي مختلف .

وعلى ذلك يصبح كل صوت ، أو على الأصح : كل رمز - عنواناً على مجموعة من الصور المنطوقة ، وهكذا مضى دانييل جونز في تطويره لنظريته عن الفونيم ، فأضاف إلى مصطلح (فونيم) ، و (فون) مصطلحاً ثالثاً هو : الصوت المزدوج (Phone Dia) ، وقد كان يفهم من هذا المصطلح : « عائلة من الأصوات يمكنها أن تتبادل الأماكن دون تعديل في معنى الكلمة » وجعل مدلول الفونيم : « عائلة من الأصوات المزدوجة غير القابلة للتبادل » . وقد سبق أن قلنا : إن لبعض الأصوات صوراً سياقية تتبادل فيما بينها ، كصورتى السين في كلمة (بسطة - بصطة) ، فهذا عند دانييل جونز (ديافون) . ولكن صورة النون قبل القاف لا يمكن أن تتبادل موقعها مع النون الأسنانية ، فمجموع صور النون هو (الفونيم) عنده .

وقد لجأ دانييل جونز ، إلى نظرية الأصوات المجردة (Les sons abstraits) التي طورها البروفسور الياباني جمبو (Jimbo) ، واللغوي الانجليزي بالمر - في طوكيو ، ومقتضى الأخذ بهذه النظرية أنهم اعتمدوا على السمات المشتركة التي يسفر عنها أداء الأصوات عدة مرات ، رغم الاختلاف في كل مرة ، وبذلك تنشأ الفونيمات على أساس من التجريد للعائلة الصوتية ، وبذلك يقع دانييل جونز في خطأ هو أنه يعرف الفونيم بعلاقته بالصور الصوتية ، وتلك هي الدائرة المفرغة التي أشار إليها تروبتسكوى من قبل ، حين ارتضى عكسها ، الذي يعرف الصورة الصوتية بعلاقتها بالفونيم .

تحديد فريمان تواديل

وآخر المحاولات التي فسرت (الفونيم) هي محاولة فريمان تواديل
Freeman Twaddell ، في بحثه القيم : « on Defining the Phoneme »
وقد نظر إلى ما سبق من الآراء والنظريات ، فبداله (الفونيم) وكأنه شبح
مقدس ، أو لغز مطلسم ، أو أفنوم^(١) (جوهر لا ينقسم) ، فهو يخشى أن
يتحول مفهوم (الفونيم) إلى شيء مبتذل نتيجة كثرة الآراء والنظريات ،
أو لعله خشي من معالجة الفونيمات كما تعالج الأشياء التي يملكها الأفراد
المتكلمون ، فيبنون بها الكلمات والجل ، وكأنها قوالب من حجارة ، على
ما عبر تروبتسكوى ، ويحسن أن ننقل هنا حديثه^(٢) :

أراد تواديل - درء لهذا الخطر - أن يؤكد بكل قوته الخاصة النسبية
للفونيم ، (وأنه مصطلح يدل على التغيرات) ، فوضع لهذا الهدف نظريته عن
الفونيم ، وهي التي يمكن تلخيصها على النحو التالي :

« إن التعبير [أى : الحدث الكلامي المحسوس] هو ظاهرة مادية
[أى : صوت] ، مرتبط بمدلول محدد . والتركيب الصوتي الذي يتكرر
في تعبيرات مختلفة ، وله دائماً نفس المعنى يسمى (صيغة - Forme) ، وأى
صيغتين يختلف مدلولهما - هما من حيث المبدأ مختلفتان أيضاً من الناحية
الصوتية [باستثناء الجنس النادر نسبياً في جميع اللغات] ، ودرجة التنوع

(١) الأفنوم في عقيدة النصارى هو الجزء الذي لا يجزأ ، ويطلقونه على الثالوث : الأب
والابن وروح القدس ؛ كل منهم أفنوم ، وهذه الأقسام الثلاثة تنتهي بعملية تخيل افتراضية
إلى إله واحد ، على حسب تعاليم الكنيسة . وتعالى الله عما يشركون أو يصفون .
(٢) تروبتسكوى السابق .

الصوتى بين هاتين الصيغتين التمييزيتين يمكن أن تختلف ، والحد الأدنى من الاختلاف الصوتى بين صيغتين غير متماثلتين يتطابق مع أجزاء التركيب الصوتى المدرس ، ومن مجموعة الصيغ التى يتميز بعضها عن بعض فى الحد الأدنى تتكون المجموعة المصنفة - Class ، هذه المجموعة تتميز بالتركيب الصوتى المشترك بين مجموعة أعضائها ، وإذا كان الحد الأدنى من الاختلاف ينصب تأثيره فى جميع أعضاء المجموعة على نفس الجزء [فى بدء الكلمة أو فى نهايتها مثلا] فإن معنى ذلك أن هذه المجموعة منظمة ، ومن الأمثلة على ذلك :

المجموعة الألمانية :

قشدة = Rabim وجاء = Kam وكسيع = lahm وأخذ = nahm
أو المجموعة العربية : حام ، دام ، رام ، سام ، شام ، صام ، عام . فالعلاقات بين أعضاء مجموعة كهذه هى الحد الأدنى من التماثلات الفونولوجية ، ويطلق فريمان تواديل على هذه التماثلات مصطلح : ميكروفونيم Microphoneme أو الفونيم المصغر ، وفى المجموعة الألمانية تعتبر الأصوات (n, l, k, R.) فونيمات مصغرة ، كما تعتبر الأصوات (ح ، د ، ر ، س ، ش ، ص ، ع) فى المجموعة العربية كذلك ، وهى جميعا تتأثر بوجود (am) فى المجموعة الألمانية ، على حين يتنوع تأثير الفونيمات المصغرة فى (ام) فى المجموعة العربية^(١) .

والمقابل الصوتى للفونيم المصغر يحتوى كثيراً من السمات النطقية ، فلدينا مجموعتان شكليتان منسقتان على هذا النحو ، إذا ما كانت العلاقات بين فونيمائهما المصغرة متماثلة ، كما فى المجموعتين الإنجليزيتين :

Pill - Till - Kill - bill
nap - gnat - Knack - nab

(١) الأمثلة العربية محاولة منا لتقريب المفهوم موضوع التمثيل .

فهما متقابلتان - لأنه حتى ولو لم تكن الطبيعة الصوتية لفونياتهما المصغرة من نفس النوع في الحالتين [لأن P, t, k - تنفسية في البداية ، وغير تنفسية في النهاية] - ومع ذلك فإن العلاقات بين هذه الفونيات المصغرة التي تحتل نفس المكان في مختلف المجموعات الشكلية المنسوقة على هذا النحو - تكوّن (ماكرو فونيم Macrophoneme - أو فونيا مكبرا) . وهو ما يقابل مفهومنا عن الفونيم ، على ما لاحظته ج . فاشيك J. Vachek .

وواضح من تقابل المجموعتين الفرق بين الفونيم المصغر ، والمكبر - أن المصغر قليلا ما يتعرض للتغيرات الصوتية مع اختلاف المواقع ، على حين أن المكبر يتميز بقدر كبير من قابلية التغير في المواقع المختلفة ، وليس هذا سوى ما ذهب إليه تروبتسكوى في تعريفه السابق ، فقد اعتمد على فكرة التعارض ، المرتبطة بالجانب الوظيفي للفونيم ، ولذلك يقول عن محاولة تواديل : « لقد انتهى تواديل بواسطة بعض الحيل المعقدة إلى النتيجة التي وصلنا إليها من طريق أقصر » . ويقول أيضا : « إن تعريفنا لا يحتوي شيئا يفترض أو يثير فكرة (أفنوم الفونيم) ، وكارل بهار Karl Buhler - ينظر إلى الفونيم على أنه (علامة صوتية على وجه الكلمة) وهو تصور يتناسب مع اعتبار الكلمة شجعا ، ويتفق تماما مع تعريفنا للفونيم » .

« والغايدة التي يمكن أن تحققها التفرقة بين الميكروفونيم والماكروفونيم - يمكن أن تتحقق بواسطة نظريتنا عن إمكانية تجميد التعارضات الفونولوجية ، وعن الأرشيفونيم Archiphonèmes . أو الفونيات الرئيسية ، كما يجتفي خطر تدمير الفونولوجيا ، وهو الخطر المرتبطه بنظرية الميكروفونيم » .

ويقول تروبتسكوى بمنتهى الاعتداد : « فنحن نعتقد إذن أن النظرية المعقدة للفونيم - التي قدمها فريمان تواديل - لا يمكن أن تحل محل تعريف

الفونيم الذى قدمناه فيما سبق ، وخير ما فعله تواديل هو أنه ألغى بصورة حاسمة جميع الأحكام المسبقة السيكلوجية ، والحيادية التى تكونت حول مفهوم الفونيم (سواء عند بعض أنصار الفونولوجيا أو عند بعض خصومها) .

« ولاشك أن طريقته المجردة فى التعبير عن فكره ، والدور الفلسفى لهذا الفكر - يفرضان على القارىء جهداً شاقاً يعجز عنه كثير من المعاندين من خصوم الفونولوجيا ، مما يؤدى إلى حالات عدم فهم ، ولقد أدى فعلاً » .

« كذلك فإن تأكيد تواديل على أن الفونيم ليس واقعا ماديا ، أو نفسيا ، وإنما هو وحدة مجردة خيالية - هذا التأكيد تلقاه ب كولندر B. Collinder و مريجي Merrigi - بالكثير من السرور ، من حيث هورفرض محض لمفهوم الفونيم » .

« والواقع أنه لم يفكر إلا فيما كان فرديناند دوسوسور يعتبره جوهر كل قيمة لغوية ، وهو الوحدة التعارضية ، والنسبية ، والسلبية » .

« فإذا كان الفونيم منتمياً إلى اللغة ، وإذا كانت اللغة منظمة اجتماعية فإن الفونيم إذن قيمة ، وله من نوعية الوجود ما لكل قيمة » .

هكذا نجد تروبتسكوى شديد الإيمان بقضيته ، وبرأيه فيها ، ناقداً لآراء من تناووها فلم يوافقته ، متصدياً لخصوم الفونولوجيا ، الذين اتخذوا من إغراق تواديل فى التجريد ذريعة إلى التشهير بالنظرية أساساً .

ولا يعدم تروبتسكوى أن يجد من العلماء من يقدم تعريفاً للفونيم يسير فى نفس الخط المنهجى الذى قال به ، فهو يقدمه ويمجده ، كتعريف أ.و. دوجروت A. w. de groot القائل بأن : « الفونيم علامة رمزية

فونولوجية ، ذات وظيفة مستقلة ، و الوظيفة الأساسية له عندما يتم التعرف عليه وتحديدته - هي أن يجعل من الممكن التعرف على الكلمات وتحديدتها ، أو تحديد أجزاء الكلمات التي لها قيمة الرمز ، فن الممكن تعريف الفونيات على أنها أصغر الأجزاء في التيار المسموع ، والتي لها هذه الوظيفة - وإن كان يمتبز اشتراط (التعرف على الفونيم) غير ذى موضوع ، لأن الذى يقبل التعرف هو الكلمات ، لا الفونيات . فالتعرف ليس أولاً ، ولكن التمييز الفونيمي هو الأول ، ثم يليه التعرف كنتيجة منطقية للتمييز ، وهو خاصة سيكلوجية ، على حين أن التمييز خاصة لغوية تتناسب مع مذهبه فى تحديد المشكلة .

وبعد ، فقد أفضنا كثيراً فى عرض هذه المشكلة ، لنقدم من خلالها نموذجاً للبحث الجاد الذى يقدمه علم اللغة الحديث ، من خلال رؤية معاصرة ، ولا ريب أن لهذه الآراء المختلفة نتيجة علمية . هي تأكيد أن جوانب المعرفة الإنسانية متكاملة ، وأن سعيها الدائب إنما هو لإثبات الحقيقة أية كانت صورتها .

والصورة التى نميل إلى الأخذ بها هي أن فكرة الفونيم وسيلة إلى تصنيف الأصوات اللغوية فى مستواها السياقى ، وهى أيضاً وسيلة إلى تحليل الصيغ اللغوية على أساس من الأصوات ووظائفها الدلالية ، وهو تحليل لا ينبغى أن يتجاهل اصطلاح أصحاب اللسان ، إلى جانب اعتماده على العناصر المعنوية والمنطقية فى تحديد الفونيم .